

دراسات في تاريخ الفكر الأوروبي

قراءة في المناهج الغربية لتفسير التاريخ في القرن 19م

د. محمد حسين الصافي*

تمهيد:

يتفق الباحثون على أهمية المنهج في البحث العلمي. لأن صحة و سلامة المنهج يؤدي إلى صحة و سلامة موضوع البحث المدروس و صحة وسلامة نتائج البحث.

لأجل ذلك اهتم العلماء والباحثون في قضية المنهج العلمي لدراسة التاريخ، وجعلوا الحديث عن المنهج مقدمة متعارفا عليها ومدخلا إلى الأبحاث العلمية. وإذا كان هؤلاء العلماء والباحثون قد اتفقوا على أن منهج البحث التاريخي هو طريقة جمع وتحليل الوثائق والمصادر التاريخية من خلال النقد والتحقيق⁽¹⁾، إلا أنهم اختلفوا

* د/ محمد حسين الصافي كلية الآداب - جامعة صنعاء

1 - كولنجود ، ر.ج. فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، القاهرة 1968، ص43، 42 - أحمد قائد الصايدى: منهج البحث التاريخي، صنعاء 1999، ص27. وللمزيد عن منهج البحث التاريخي أنظر أيضا: لانجولا وسينوبوس: المدخل إلى الدراسات التاريخية، في كتاب النقد التاريخي، ترجمة عبدالرحمن بدوي، الكويت 1977. ويعرف البحث العلمي أنه حزمة من الطرائق والخطوات المنظمة والمتكاملة تستخدم في تحليل وفحص معلومات قديمة، بهدف التوصل إلى نتائج جديدة ، وهذه الطرائق تختلف باختلاف أهداف البحث العلمي ووظائفه وخصائصه وأساليبه . وفي تعريف آخر إنه " عملية فكرية منظمة يقوم بها شخص يسمى (الباحث) من أجل تقصي الحقائق في شأن مسألة أو مشكلة معينة تسمى (موضوع البحث) بإتباع طريقة علمية منظمة تسمى (منهج البحث)؛ بغية الوصول إلى حلول ملائمة للعلاج أو إلى نتائج صالحة للتعميم على المشكلات المماثلة تسمى (نتائج البحث)". (أنظر: محمد مسعد ياقوت: البحث العلمي العربي: معوقات وتحديات، مجلة الجندول (الالكترونية)، السنة الثالثة: العدد24 سبتمبر2005م.

(WWW.ULUMINSANIA.NET). وكان المسلمون القدامى اتبعوا أسلوب التكلم عن مناهجهم في مقدمات كتبهم . أنظر على سبيل المثال : الغزالي؛ أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت505هـ): الاقتصاد في الاعتقاد، ب د، ص5. بل ان الإمام السخاوي (771هـ) وضع منهجية دقيقة لكتابة التاريخ قبل الأوروبيين بمئات السنين. (أنظر: طبقات الشافعية الكبرى، ب د، ج2ص16) . والنهج لغة: الطريق، نهج: بين واضح. والنهج الطريق المستقيم. وفي حديث العباس: لم يمت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى ترككم على طريق ناهجة، أي واضحة بيّنة. ونهجت الطريق سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه. (ابن منظور الإفريقي، جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م): لسان العرب، ب د، مادة نهج) والمنهج في أعم معانيه، وسيلة لتحقيق هدف وطريقة محددة لتنظيم نشاط معين (روزنتال وآخرون: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، بيروت 1985، ص502).

حول منهج التفسير، أو طريقة التفسير، ومن هنا تعددت مناهج تفسير التاريخ خلال القرنين السابقين، التاسع عشر والعشرين وتباينت تبايناً كبيراً خاصة في أوروبا.

ولهذا تأتي أهمية دراسة قضية المنهج العلمي. بل إن بعض الباحثين يعتبر أن "المنهج هو الذي يضفي على المعرفة صفة العلم، لا مقدار اليقين الذي يتوفر لنتائج البحث"⁽¹⁾. ومنعاً للالتباس لابد من التوضيح والتفريق بين منهج البحث، ومنهج التفسير وفلسفة التاريخ - أثناء هذه الدراسة- فمنهج البحث هو وسيلة العمل و أداة وطريقة التنفيذ وجمع المادة وتحليلها وتركيبها، والنقد والمقارنة، ومنهج التفسير هو المنهج الذي يتبعه الباحث لفهم واستنتاج وتفسير المادة التاريخية، أما فلسفة التاريخ فهي النتائج الفكرية ذات طابع التفسير الكلي التي أخذ بها الباحث سواء بعد إنجاز بحثه، أو اعتنقها، بطريقة قبلية مسبقة⁽²⁾. وإن كان البعض يعتبر قضايا المنهج العلمي جزء من الفكر الفلسفي بشكل عام. إلا أننا نستطيع أن نقول إن هذه الدراسة هي حلقة الوصل بين حلقتين، حلقة منهج البحث وحلقة النظرية الفلسفية المفسرة، أي حلقة مناهج التفسير.

وتأتي أهمية القرن 19 الميلادي أنه شهد عصر الثورة الصناعية والعلمية الكبرى في أوروبا كمحصلة لحركة الاستعمار العالمية. كما شهد تغيرات سياسية واجتماعية هامة . على أن التحول الحقيقي كان في الفكر والثقافة والصراع الفكري الذي دار بين المثاليين والماديين وبين الوضعيين وغير الوضعيين وفي اختلاف المناهج وتعددتها وما نتج عن هذا الصراع، كما سوف نرى في هذه الدراسة .

1 - أحمد قائد الصايدي: منهج البحث، 29.

2 - يستخدم المؤرخ الفلسفة لفهم وتفسير أحداث التاريخ ووقائعه بينما يستخدم الفيلسوف التاريخ لتأكيد أو نفي نظرياته الفلسفية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى معرفة التجربة الأوروبية في مجال مناهج تفسير التاريخ، والتي ظهرت في القرن 19 م . والكشف عن الفوارق بينها وظروف نشأتها واستخداماتها. وهو قرن شهد ثراءً كبيراً في مجال النهضة العلمية في أوروبا، خاصة في مجال المناهج، كما شهد صراعاً واختلافاً بين المفكرين الأوروبيين حول فهم وتفسير التاريخ.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث باعتباره يكشف عن حقل معرفي مهم في مجال الدراسات التاريخية وهو حقل مناهج التفسير، التي تختلف عن منهج البحث وعن نظريات فلسفة التاريخ. الشيء الذي سوف يساعد الباحثين في اختيار واستخدام هذه المناهج مما يعزز من علمية الدراسات التاريخية، مع اعتراف الباحث أن كل منهج من هذه المناهج يستحق دراسة كاملة عنه، حيث لا زال الفكر التاريخي بحاجة إلى أمثال هذه الدراسات.

الدراسات السابقة:

للأسف لم يقف الباحث على دراسات سابقة في هذا الموضوع سوى دراسة تقترب نوعاً ما من موضوع البحث وهي التي قام بها أرنست كاسيرر بعنوان في المعرفة التاريخية. ولهذا لم تكن كافية على أهميتها لموضوع البحث المدروس. إضافة إلى بعض الدراسات حول فلسفة التاريخ، على أن الحديث عن مناهج التفسير أتى عرضياً ضمن الحديث عن بعض النظريات الفلسفية.

منهج البحث :

منهج البحث المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي ضمن جمع مفرق، لغرض الوصول إلى تحقيق أهداف البحث السالفة الذكر .

تاريخ ونظريات مناهج تفسير التاريخ :

يعتبر بعض الباحثين أن المنهج العلمي هو أحد تراث العصور الوسطى(1)، إلا أننا سوف نبدأ في استعراضنا الوصفي لهذه الدراسة من العصر الحديث. وخاصة بعد ما يسمى عصر التنوير، حيث علا شأن العلوم التجريبية وفلسفتها وهيمنتها على الحياة العلمية في أوروبا(2)، مما سبب في رد فعل بعض الفلاسفة على هذا التوجه، ومنهم هردر الذي حاول التفريق بين منهج يدرس الطبيعة ومنهج يدرس الإنسان وتاريخه.

هردر: المنهج الذاتي (لا يفهم الروح إلا الروح) :

كان منهج جون هردر⁽³⁾ Johan Gottfried Herder (1744-1803م) دراسة التاريخ، هو المنهج الذاتي، والفهم التعاطفي للحياة الباطنية للآخرين من خلال المنهج التحليلي، وذلك بناء على نظريته للتاريخ والكون.

1 - كانتور، نورمان ف: التاريخ الوسيط، قصة حضارة : البداية والنهاية، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة ب د، ص17.

2 - يذكر أنصار العلم التجريبي أنه يمتاز بعدة مميزات منها أنه يولد اليقين التام ، ومنها أنه يبرهن على حقائق لا يمكن الوصول إليها بغير طريق التجربة ، ومنها أنه أقدر على اكتشاف أسرار الطبيعة. (انظر : عبدالرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى ، القاهرة 1979م ، ص.ج).

(2) هردر: فيلسوف ورجل دين وشاعر ألماني. (للمزيد انظر: Herder, J. G., Another Philosophy of History and Selected Political Writings, Translated Evrigenis, I. D. and Pellerin, D., Indianapolis 2004, pp ix ff).

(2) كاسيرر، أرنت: في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، القاهرة 1997، ص8 وما بعدها.

Hamilton, Paul., Historicism, London 1996, pp41ff

3 - هردر: فيلسوف ورجل دين وشاعر ألماني. (للمزيد انظر: Herder, J. G., Another Philosophy of History and Selected Political Writings, Translated Evrigenis, I. D. and Pellerin, D., Indianapolis 2004, pp ix ff).

حسب نظر هردر فإن التاريخ لا تتحكم فيه النزعة العملية الخاصة بانجاز الأفعال، بل كإنسان ذي مشاعر. وعلى ذلك لم ينظر إلى مجموع أفعاله كما يفعل المؤرخون بل إلى ديناميكية مشاعره. وجميع الأفعال الإنسانية السياسية والفلسفية والدينية والفنية لا تمثل إلا الجانب الخارجي من الإنسان.⁽¹⁾

كما أن الإنسان ارتبط ارتباطا وثيقا بالكون المادي المحيط به، فالكون وضع على هيئة كائن حي يسمح بخلق كائنات حية عليا فيه، تنمو وتتطور في داخله، لتبلغ مبلغ النضج الكامل، أو أسمى مراتب الخلق. فالإنسان بهذا هو حلقة بين عالمين، العالم الطبيعي - الكون المادي - الذي نشأ منه، والعالم الروحي الذي يخرج إلى حيز الوجود المادي في هذا الهيكل الإنساني، لأن وجوده الروحي يتخذ شكل قوانين روحية تظهر آياتها على الأرض.

والتاريخ: "مسرح يبين دور الله في رعاية الإنسان على الأرض. وكل شيء يجري في هذا المسرح لغاية ما؛ بالرغم من أننا لن نستطيع أن نرى الغاية النهائية. إنه مسرح تظهر فيه العناية الإلهية فقط من خلال ثغرات و أجزاء متناثرة من المشاهد الفردية"⁽²⁾. ولذلك فإن هردر لا يرى في التاريخ مجرد الأحداث الظاهرة الخارجية، بل يسعى إلى رؤية روحه، الروح الكامنة خلف الأقنعة والحجاب. وكل جزء من الأجزاء لا يعتبر جزء فحسب، بل إن الكل يحيا في كل جزء من الأجزاء، ولهذا توصف فلسفة هردر أنها تفسير روحي للتاريخ. حيث لا يفهم الروح إلا الروح⁽³⁾. وبما أن الكون كائن حي فالتاريخ هو أفعال هذا الكائن. ولذلك لا يمكن فهم روح الأمة وشخصيتها بمنهج العلوم الطبيعية التي سوف لن تبين سوى المظهر

1 - كاسيرر، آرنست: في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود، القاهرة 1997، ص8 وما بعدها.

Hamilton, Paul., Historicism, London 1996, pp41ff

2 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 11.

Leventha, R S, The Disciplines of Interpretation: Lessing, Herder, Berlin 1994, p.164

3 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 14.

الخارجي للأحداث . أما روح التاريخ وباطنه فلا يمكن التعرف عليه إلا من خلال الروح الداخلية للإنسان التي تستطيع أن تكشف روح العصر⁽¹⁾.

كان هردر يشعر بأهمية نظريته الذاتية إلى درجة أنه زها بتمكنه من قراءة التوراة كما لم يقرأها أحد من قبل، فالتوراة بعد قراءته أصبحت كتابا مقدسا كشف عنه الغموض بعد قرون من الغموض كما يدعي.

ويبدو المنهج الذاتي واضحا في فكر هردر عندما جعل من أوروبا مركز تاريخ العالم وأعطى الجنس الأوربي أعلى مراتب التقدير في التاريخ الإنساني. كما أن نظريته تستند إلى أن الخصائص السيكولوجية المتوارثة في التكوين هي أساس الفوارق بين الأوضاع الاجتماعية و السياسية للأجناس البشرية المختلفة⁽²⁾. وهي نظرية كانت مبرره للتعصب القومي⁽³⁾. إلا أن بعض الباحثين يرون أن هردر أراد تأسيس المنهج العلمي لفلسفة التاريخ⁽⁴⁾. كما أن الكثير منهم يقرون بتأثيره الكبير على تاريخ فلسفة التاريخ وتطورها⁽⁵⁾. وتأثيره على الفلاسفة أمثال هيجل ودلتاي⁽⁶⁾. وما نستطيع أن نقوله: إن فكره الفلسفي بلا شك كان له التأثير الأول في اتخاذه هذا المنهج.

1 - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، الاسكندرية 1975، ص 29.
2 - اختلف علماء النفس في العوامل المؤثرة والدافعة للسلوك الإنساني ، هل هي البيئة والظروف المحيطة أم العامل الوراثي، أو هي عوامل متداخلة بينهم تختلف بحسب ظروفها أنظر: سايمنتن، دين كيث: العبقري والإبداع والقيادة ، ترجمة شاكر عبد الحميد، الكويت 1993، ص 49 وما بعدها.
3 - كولونجود: فكرة التاريخ، 171 و ما بعدها.

4- Pickering, M., Auguste Comte: An Intellectual Biography, Cambridge, 1993, p279

5- The Dictionary of the History of Ideas, Virginia, 2003, Vol. 3, p305

6- Forster, M., "Johann Gottfried von Herder", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Winter 2001 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL

<<http://plato.stanford.edu/archives/win2001/entries/herder/>>.

سيأتي التعريف بهيجل ودلتاي لاحقا.

على أنه بهذا الفكر والمنهج كان هردر يعتبر راند رفض فكر ما يسمى بعصر التنوير⁽¹⁾، وهو العصر الذي انقلب على الكنيسة والمسيحية، كذلك كان راند فكر استقلال المنهج التاريخي عن مناهج العلوم الطبيعية⁽²⁾.

رانكه : المنهج الموضوعي (وصف ما كان كما كان):

يعتبر ليبولد فون رانكه Leopold Von Ranke⁽³⁾ (1795- 1886) راند المنهج الوصفي الموضوعي للتاريخ، فهو وإن كان متأثراً في تفسير وفهم التاريخ إلى حد ما بفكر هردر إلا أن منهجه كان مختلفاً تماماً. وهو منهج "وصف ما كان كما كان" والبدء بالبحث التاريخي دون أحكام مسبقة "بموضوعية كافية" و بالاستناد إلى مصادر معاصره للحقبة موضوع الدراسة، مصراً على انه ينبغي للمؤرخ ألا يضيف لمادته شيئاً بقصد زيادة سحرها الجمالي، أو سعياً وراء إحداث تأثير بلاغي. أي كان منهجه المنهج الوصفي و الدعوة إلى الموضوعية التامة دون أي تأثير أو تدخل من المؤرخ نفسه. أو الانحياز إلى أي طرف، أو الدفاع عن أي برامج دينية أو قومية أو سياسية، ووصف من يقوم بذلك بأنهم ليسو مؤرخين بل مجرد كتاب نشرات. و بهذا قامت فكرة الموضوعية التاريخية عند رانكه على مثل هذا الفصل بين الذات

1 - كان أيضاً من منتقدي حركة التنوير رواد الحركة الرومانتيكية الذي يعتبر هردر واحداً منهم. حيث هاجموا تقديس العقل الطاغوي وقالوا أن العقل منحط لأن دوافعه منحطة ، إذ يتحول إلى مجرد أداة لتحقيق الشهوات المنحرفة. وإن الأساس في الإنسان هو الأخلاق والقيم. لا نفع للعقل بدونهما (أنظر: أحمد محمود صبحي و صفا عبد السلام جعفر: في فلسفة الحضارة، بيروت 1999، ص 172-181).

2 - أحمد محمود صبحي : فلسفة التاريخ ، 26 وما بعدها.

3 - رانكه: أشهر المؤرخين الألمان في القرن التاسع عشر. ويعتبره البعض مؤسس المنهج العلمي للتاريخ . ألف عدة كتب منها تاريخ الأمم اللاتينية والتونونية. وفي هذه المؤلفات استخدم مصادر كانت تعد جديدة آنذاك مثل: المذكرات والمفكرات والرسائل والاستعانة بشهود عيان. (Krieger L., Ranke : The Meaning of History, Chicago 1977).

و الموضوع أو الشخصي و الواقعي. محأولا عدم التعبير عن الاهتمام بصورة ذاتية أو شخصيه لكل الأحداث التاريخية التي وصفها⁽¹⁾.

كما كان رأيه أن التاريخ لا ينبغي أن يكون مُصاغاً بطريقه توجيهية تربوية مباشرة. حيث يمكن أن يحقق هذه الأهداف التربوية من خلال الوقائع المجردة والأفكار، ودون تدخل المؤرخ نفسه.⁽²⁾ والجدير بالذكر أن الوصف كان من أهم مناهج المعرفة بشكل عام منذ التاريخ القديم ، وخاصة عند اليونان.

وربما لا نستطيع فهم منهجه إلا من خلال قراءة فلسفته، فإنه وإن كان يعارض كل فلسفة تأملية للتاريخ، إلا أنه كان يؤمن بالفهم الكلي لحركة التاريخ، وعالمية و كلية المتغيرات التاريخية. فالتاريخ لم يكن عنده مجرد سلسلة من الأحداث المنعزلة، بل كان أحداثاً محكمة، متبادلة التأثير و صراعاً محكماً بين القوى الروحية، و كان لكل من هذه القوى معنى محدد عنده، وقد اسمأها "أفكار الله".

فالتاريخ لا يقدم مشهداً لأحداث مجردة كما يبدو للنظرة الأولى، وهو ليس مشهداً للدول و الشعوب القائمة بالغزو أو الهجوم و يتلوا بعضها بعضاً، وهناك في الحقيقة قوى روحية تفيض بالحياة، وهي قوى خلاقة، إنها الحياة نفسها. وهناك طاقات أخلاقية نراها هي بدورها في التاريخ. و لا يمكن لهذه الطاقات أن تعرف، أو أن تفهم مجردة ، بالرغم من أننا نستطيع أن نراها و أن ندركها. ويستطيع أي شخص أن يدرّب نفسه على الشعور بوجودها. إنها تنمو و تسيطر على العالم، و تظهر نفسها في كثير من الصور المتنوعة. كما أنها تتحدى بعضها البعض و يحد بعضها البعض و يتغلب بعضها على بعض. ويكمن السر الكامل لتاريخ العالم في تلاقي هذه القوى،

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 23 . عن الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية أنظر: عبد المالك التميمي: الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية المعاصرة، عالم الفكر، العدد 4 المجلد 29، الكويت إبريل يونيو 2000 .

2 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 23؛ أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، 35. يعتبر التوجيه التربوي أحد أهم أهداف دراسة التاريخ، وأجل فوائده.(أنظر: أحمد قائد الصايدى: مناهج البحث، 34، 33).

و في انتقالها، وفي استمرارها، و في تلاشيتها، وعودتها للحياة ثانياً. هذه الأشياء تعني أن هذه القوى تستطيع أن تحقق كمالاتاً عظيمة⁽¹⁾. ورغم أن معظم عمل رانكه والأكثر أهمية كان في تاريخ الكنيسة⁽²⁾، إلا أن المنهج الذي اتخذه رانكه عُد نموذجاً للمنهج التاريخي⁽³⁾.

على أنه وجهت انتقادات عديدة إلى فكر ومنهج رانكه من بعض المعاصرين له ومن تلاميذهم من المؤرخين، منها أنه حول التاريخ إلى سجل جاف فاقد لبعده الأدبي حيث أصبح مجرد سجل للحقائق والمؤيدة بقائمة طويلة من المصادر والمراجع. كما أخذ عليه أنه كان متعصباً للدولة البروسية ومناهضاً لكل حركات التحرر التي قامت في أوروبا في عصره. ومن أبرز منتقديه لامبرخت (Lamprecht 1856-1915م)⁽⁴⁾ ودروسن (Droysen)⁽⁵⁾.

وياكوب بوركاردت (Jacob Burckhardt)⁽⁶⁾ (1818-1897) الذي كان تلميذاً لرانكه نفسه⁽⁷⁾.

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 25. أنظر على سبيل المثال :

Ranke, L.V., The Ecclesiastical and Political History of the Popes of Rome: During the Sixteenth and Seventeenth centuries, Translated from the Germany by Austin, S., in two volumes, Oxford, 1841.

2- Amron, E., Interpreting Christian History: the Challenge of the Churches past, Oxford, 2005, p153.

3 - Hughes, M., Fifty Key Thinkers on History, London, 2000, p260.

4 - لامبرخت: مؤرخ ألماني وأستاذ جامعي له من الدراسات: تقدم معايير التطور التاريخي والغاية القديمة والحديثة للمعرفة التاريخية. ومنهج تاريخ الحضارة (للمزيد أنظر: كاسيرر: المعرفة التاريخية، 127 حاشية 2، 3، 4، 5، 6).

5 - ستاتي الدراسة عنه لاحقاً.

6 - ياكوب بوركار مؤرخ سويسري اختص بتاريخ الفن والحضارة، من مؤلفاته: تأملات في تاريخ العالم وحضارة النهضة في إيطاليا والتاريخ الحضاري لليونان، وكان مذهبه هو الحس والخيال والتأمل في كتابه التاريخ (انظر: كاسيرر: المعرفة التاريخية، 126، 125، حاشية 12-15؛ مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة من نيكلر إلى هيوم، الإسكندرية 2020م، ص198).

7 - ويكيبيديا، ليوبولد فون رانكه.

المنهج الجدلي :

وهو أهم وأشهر منهج لتفسير التاريخ برز في القرن التاسع عشر على يد هيجل Hegel⁽¹⁾ (1770-1831) رائد الفكر المثالي⁽²⁾ في أوروبا. ثم أخذ عنه هذا المنهج كارل ماركس أهم فيلسوف للفكر المادي أيضا. وعلى ذلك فالمنهج الجدلي نموذج لمنهج تفسيري يمكن أن تستند إليه نظريتان متضادتان تماما في تفسير التاريخ وهما التفسير المثالي والتفسير المادي.

والجدل Dialectic في معناه اليوناني يعني تصادم الآراء المتقابلة بقصد معرفة الحقيقة أو طريقة الإقناع، الذي استعمله الفيلسوف اليوناني هيرقليطس Heraclites بمعنى الصراع والتغير المستمر في الطبيعة⁽³⁾. واشتغل به بعض الفلاسفة الغربيين⁽⁴⁾، على أن هيجل طور هذا المعنى فاعتبر الجدل الذي هو عبارة عن القضية والنقيض لها ثم مركبهما انه قانون الوجود والطبيعة والفكر والمجتمع، وأن الجميع في حالة صيرورة وتغير وتحول دائم بحسب هذا التركيب لمنطق الجدل⁽⁵⁾.

تقوم نظرية هيجل في تفسير التاريخ على مبدأ وحدة الوجود، إذ لا موجود إلا المطلق الواحد، و المطلق هنا ليس مجموع أجزاء ، ولكن وحدة مطلقة لا تعتمد على

1 - هيجل: ولد في 1787 في مدينة شتوت جارد الألمانية، درس الفلسفة واللاهوت ثم ركز دراسته أكثر في اعلام التصوف الألمان ، عمل مدرسا خصوصيا، ثم مدرسا في جامعة بيل ثم في جامعة هيدلبرج وجامعة برلين، يعد أعظم الفلاسفة الألمان في عصره.(عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، بيروت 1984م، ج2ص574 وما بعدها).

2 - المثالية Idealism : من المثال وتعني في الإغريقية الصورة او الفكرة والفلسفة المثالية هي التي تقول أن أصل الوجود هو الفكر أو العقل أو الوعي والمادة هي الثانوية. بينما الفلسفة المادية تقول أن المادة هي أصل الوجود وان الفكر أو الوعي هو انعكاس لها .(عبد المنعم حفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة 2000م، ص739، 723).

3 - جميل صليبيبا: المعجم الفلسفي، بيروت ب د ، ج2ص310.

4 - أنظر على سبيل المثال: ديورانت، ويل: أبطال من التاريخ، ترجمة: سامي الكعكي و سمير كرم ، بيروت 2001م، ص227 ؛ سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة 1986م، ج2ص371.

5 - عبد المنعم حفني: المعجم الشامل ، 249. أنظر على سبيل المثال:

Hegel, G.W.F, The Philosophy Of History, Translated by J. Sibree ,Kitchener 2001, pp73,79,458.

شيء خارج عنها. وعلى ذلك لا توجد أي ثنائية على الإطلاق، فلا ثنائية بين عالم المثال وعالم الواقع حيث الفكر والوجود وحدة مطلقة.

والمطلق الذي هو روح العالم هو المسير الحقيقي لكل شيء ، وحركة التاريخ ما هي إلا سعي الروح الكلية لتحقيق وعيها الذاتي بحريتها. والحرية هنا بمفهوم قدرتها على تحقيق كل شيء. وأسلوب المطلق لتحقيق ذلك هو المنهج الجدلي حيث الصيرورة تبدأ من القضية أو الموضوع ثم نقيضه ثم المركب لهما. هذا المنطق هو الذي يحكم حركة التاريخ وهو الذي يفسر كل شيء.

والمثال التقليدي للجدل هو مثل حبة القمح التي تنمو فينبثق عنها الساق فتنتفي كبذرة وينمو القمح ويحمل السنابل، عندها يهلك الساق، وهذا هو نفي النفي ، أو مركب النقيضين. على أن حبات القمح في السنابل تحمل خصائص البذرة الأولى وهكذا.

وعلى ذلك فإن حركة التاريخ هي صراع الأضداد، حيث لا تكشف الروح عن نفسها إلا من خلال صراع. ومن ثم فإن الجدل هو سر حركة التاريخ⁽¹⁾. ومذهب هيجل من التعقيد بحيث يحتاج إلى مزيد من الشرح ، وقد التف حول النظرية الكثير من الأنصار، وحازت على الكثير من الدراسات والاهتمام، ومثلت قمة الفكر المثالي في أوروبا.

ولا نعرف ما إذا كان هذا المنهج قد سبق النظرية والفكرة عند هيجل أم أن النظرية هي التي صنعت هذا المنهج التفسيري. على أنه سرعان ما اخذ عنه هذا المنهج كارل ماركس ليضع نظريته المادية في تفسير التاريخ. لكن ماركس وانجلز

1 - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، 209 وما بعدها؛ رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ، القاهرة 2000، ص 151 وما بعدها؛ عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، 588/2 وما بعدها. أنظر أيضا: إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجدلي عند هيجل، بيروت 1982.

اسقطا العمق والجوهر المثالي عن المنهج الجدلي واعتبروا أن جدل هيجل كان واقفا على رأسه وليس على قدميه بسبب فكره المثالي، ثم ألبسوا المنهج لباسا ماديا لتفسير الظواهر الإنسانية والطبيعية على حد سواء. الشيء الذي عده بعض المفكرين تشويها للهيجلية وسوء فهم لها⁽¹⁾. ومع ذلك فإن ماركس وانجلز اعترفا بالفضل لهيجل حيث يشير انجلز عن الجدل الهيجلي انه عمل لم يضطلع به احد منذ أرسطو سوى هيجل، بل انه أعظم ما أنجزته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية⁽²⁾.

لقد أعجب ماركس وانجلز بالمنهج الجدلي لأنهم رأوا فيه منهج يستطيع ان يفسر مجرى التطور والتغير المستمر في المجتمع وفي الطبيعة، كحركة دائمة، وذلك عكس المناهج الأخرى ذات النظرة الاستاتيكية الجامدة⁽³⁾.

ثم وضع ماركس قوانين تشكل منهجه في تفسير التاريخ، القانون الأول التغير من الكم إلى الكيف سواء في عالم الطبيعة أو عالم الإنسان. والقانون الثاني تداخل الأضداد وصراعها والقانون الثالث نفي النفي، وكلها قوانين تفسر حركة الطبيعة والمجتمع من منظور التفسير المادي⁽⁴⁾. وهكذا فالجدل منهج يفسر كل شيء -حتى الفكر- أنه يتطور من الأدنى إلى الأرقى نتيجة التناقضات الداخلية التي تعمل فيه.

وإذا كانت الفلسفة هي إبداع العقل البشري في الفهم، إلا أن هذا العقل يتطرف أحيانا بعيدا في جانب محدد ويغفل كل الجوانب الأخرى، كما فعل ماركس وانجلز في تفسيرهما المادي للتاريخ عندما وضعوا العامل الاقتصادي والحاجة المادية للإنسان وصراع الطبقات هو العامل الوحيد المفسر للتاريخ.

1 - أنظر: عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، 575/2 وما بعدها.

2 - احمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ، 222.

3 - احمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ، 223.

4 - رافت الشيوخ: تفسير مسار التاريخ، 170-172.

ثم لم يلبث أن وصلت التأثيرات الفكرية الأوروبية إلى الساحة العربية⁽¹⁾، فأخذ بعض الباحثين تطبيق المنهج الجدلي المادي في دراسة تاريخ الإسلام وفكره، وألبسوا نظرية صراع الطبقات على تفاصيل التاريخ العربي، فقالوا إن أبا ذر ومجموعة من الصحابة كانوا يساريين ومعأوية وآخرين من التيار اليميني. أو القول بأن الأشاعرة والفقهاء كانوا رجعيين، بينما ابن رشد والمعتزلة تقدميين عقلانيين.

ويرى أصحاب هذا المنهج أن الإسلام فكرا وتاريخا- ما هو إلا نتاج العلاقات الاقتصادية كحتمية تاريخية لا بديل عنها. وأنه انعكاس لتحولات أسلوب الإنتاج والتبادل داخل المجتمع العربي⁽²⁾.

على أنه يلاحظ أن الدعاة إلى هذا المنهج خرجوا برؤى متباينة وتطبيقات مخالفة عن بعضهم البعض. الشيء الذي يصبغ الذاتية على أبحاثهم ودراساتهم ذات المنظور الماركسي للتاريخ الإسلامي⁽³⁾.

منهج همبولت (الوصف الخلاق):

أصبح منهج رانكه من الناحية العملية مهيمناً على الكثير من المؤرخين⁽⁴⁾، مثل همبولت⁽⁵⁾ Wilhelm Von Humboldt (ت1835م) الذي يقول مع رانكه⁽⁶⁾: "إن

1 - يعتبر البعض الجامعة والمدرسة الحديثة بنظماهما القائم جزء من التراث الاستعماري للمنطقة العربية، حيث الاهتمام والتركيز فقط على العقل وإغفال الجانب الروحي والقلبي والسلوكي ومتطلبات النمو الوجداني للطالب، بعكس المدرسة في التاريخ الإسلامي حيث الاهتمام المتوازي بنمو العقل وبناء الروح، أو علوم العقل وتزكية النفس، أو القيم والتطبيق. (أنظر على سبيل المثال: محمد حسين الصافي: علماء التزكية ودورهم العلمي والدعوي في عهد الدولة الرسولية، مجلة الإكليل، العددان 30-36 يناير يونيو 2010م، صنعاء، ص44،43).

2 - شاكير احمد السحمودي: مناهج الفكر العربي المعاصر في دراسة قضايا العقيدة والتراث، جدة 2010م، ص41-44.

3 - شاكير السحمودي: مناهج الفكر، 44 وما بعدها.

4 - تومسون، كينيث: قادة الفكر الدولي في القرن العشرين، ترجمة: حسين فوزي النجار، القاهرة ب د، ص4 وما بعدها.

5 - همبولت: مؤرخ ألماني، له العديد من الدراسات منها: مهمة الكتاب التاريخي، وتدهور الدولة الحرة اليونانية وسقوطها ومشروع العلم الانتروبولوجي المقارن و تأملات حول تاريخ العالم. (أنظر: كاسيرر: المعرفة التاريخية، 121، 122 حاشية 31، 36، 39، 41).

6 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 29.

مشكلة المؤرخ هي أن يذكر ما حدث فعلاً ، فإن الوصف المباشر هو الطلب الأول و الجوهري الذي يطلب منه، كما أنه أسمى ما يستطيع أن يحققه". وإذا اتبعنا هذه النظرة فيبدو أن ما يقوم به المؤرخ هو أن يستوعب فقط، وأن يكرر لا أن يعمل عملاً مستقلاً جديداً وخلاقاً.

فهو يتفق مع رانكه على أن منهج المؤرخ هو الوصف و لكنه يختلف معه في أن مهمة المؤرخ في حاجة إلى تعاون دائم مع الخيال الخلاق الذي يستطيع وحده ربط الوقائع المنفصلة و الموزعة في نطاق واسع بعضها ببعض في وحده حقيقية. ولكن من الواجب ألا ينطلق خيال المؤرخ بعيداً عن الأحداث الفعلية. ولكن التأمل والتجربة هي أوجه مختلفة للعقل المدرك للتاريخ⁽¹⁾.

أما فلسفة همبولت فهي تشير إلى أن الظواهر الجزئية لوقائع التاريخ، تظهر دواماً معيناً و نظاماً و خضوعاً للقانون. و التاريخ بصرف النظر عما يتراءى من مظهره الحي، وتعدد جوانبه، فإنه يشبه آلة ميكانيكية تخضع لقوانين ممتدة لا تتبدل، كما أنه يبدو خاضعاً لدفع قوى ميكانيكية⁽²⁾.

ولكن بالمقابل رفض همبولت أي غائية أو هدف محدد إنساني، أو إلهي. مدعي أن القوى الدافعة في تاريخ العالم هي بصفة رئيسية القوى الإنتاجية، والحضارة و القصور الذاتي(الإنساني). و لذلك لا يعترف سوى بقوى الطبيعة الإنسانية فقط، ولا شئ سواها⁽³⁾.

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 29.

2 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 31.

3 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 32.

وإذا كان همبولت اتفق مع رانكه حول المنهج الوصفي إلا أن رانكه اختلف عنه في نظريته للعوامل التي تسير حركة التاريخ، فهي بالنسبة لهمبولت قوى إنسانية، بينما عند رانكه سر إلهي⁽¹⁾.

ولعل هذا نموذج للاتفاق في المنهج والاختلاف في الفكر الكلي بين اثنين من مفكري التاريخ.

أوجست كونت: (المنهج الوضعي):

لكن سرعان ما ظهر اتجاه الاستخدام الوظيفي والغائي للمنهج التاريخي. وتمثل ذلك في أوجست كونت⁽²⁾ August comte (1798- 1857) الذي اعتبر نفسه مؤسس المذهب الوضعي وعلم الاجتماع⁽³⁾، وملخص مذهبه الدعوة إلى استخدام مناهج العلوم الطبيعية في دراسة العلوم الإنسانية .

والغاية من استخدام المنهج الوضعي هو البحث عن القوانين العامة للتغير المستمر في الفكر الإنساني، و لا يمكن أن يقتصر على مجرد سرد الحوادث. وهدف هذا المنهج هو الوصول إلى التنبؤ من أجل السيطرة و التحكم⁽⁴⁾.

والكشف عن فكرة التقدم في التاريخ و اعتبار أن الإنسان كائن حي مثل باقي الكائنات. و لذلك فهو خاضع للقوانين التي تتحكم في الطبيعة الحية. وكل ما قيل في طبيعة الإنسان الروحية باعتبارها شيئاً لا يخضع للوجود الحيواني وأحواله هو مجرد وهم. و على المنهج الوضعي نبذ ذلك. زاعماً أنه اكتشف القانون العام للتطور الذي

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 32.

2 - أوجست كونت : عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي، مؤسس الفلسفة الوضعية القائلة لا سبيل إلى المعرفة إلا بالحواس والخبرة (للمزيد: ويكيبيديا)

3 - الفلسفة الوضعية: الوضعية عند كونت تعني الواقعي والنسبي والمعطى المباشر من التجربة. ويمكن تعريف المذهب الوضعي بأنه هو الفلسفة التي تعمل ضمن فلسفة العلوم الطبيعية-الكشف عن القوانين- والداعية إلى استخدام المناهج التجريبية في العلوم الإنسانية لتحقيق المعرفة العلمية.(عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل، 944، 943 ؛ كولنجود: فكرة التاريخ، 220).

4 - محمود عوده: تاريخ علم الاجتماع، ج1 بيروت ب د، ص 89.

تنشأ منه فلسفة أو منهج كلي حقيقي للتاريخ كما أن التطور الاجتماعي الذي تصوره، ما هو إلا استمرار للتطور البيولوجي الحاصل في بقية الكائنات الحية.

وبالتقسيم المنهجي الذي وضعه كونت جعل مهمة المؤرخين هي فقط توثيق الوقائع التاريخية⁽¹⁾، و التأكد منها عن طريق النقد و التحليل، بينما مهمة الكشف عن قوانين حركة التاريخ تركت لعلماء الاجتماع، حسب زعمه⁽²⁾.

ونستطيع القول إن القرن التاسع عشر هيمنت عليه نزعة تنكر الدين، وتؤمن بإمكانية تفسير كل الظواهر باختلاف أنواعها وتعددتها من خلال المنهج التجريبي فقط، واستسلم مفكرو هذا العصر وفلاسفته لسيطرة نموذج فيزياء نيوتن القائم على التجربة، وتم تعميم أسس المنهج الوضعي لتشمل العلوم الإنسانية. وكان من نتائج ذلك أن تم اختزال الظواهر الإنسانية في جوانبها الحسية والفيزيائية، وإسقاط كل ما هو غيبي من هذا الوجود، حتى أصبح لم يعد هناك فرق بين الظاهرة الإنسانية والظاهرة الطبيعية. كما تم تجريد العلم من كل قيمة أخلاقية، والتركيز بطرح سؤال الوسائل دون سؤال الأهداف والغايات، ذلك أن "الحالة الوضعية تقوم أساسا على اعتبار الظواهر خاضعة للقوانين، وأن مهمة البحث العلمي هي العمل على الكشف عن هذه القوانين؛ أي بيان شروط وجود الظواهر، لا أسبابها الأولى والأخيرة. إن المهم والأساسي - في نظر أوجست كونت - هو بيان كيف يحدث الشيء، لا البحث

1 - حدد كونت لهذا العلم أربعة مناهج أساسية للبحث و المعرفة العلمية الوضعية وهي: الملاحظة - التجربة - المنهج المقارن- المنهج التاريخي. والمنهج التاريخي، حسب نظره هو أفضل وسائل البحث (محمود عوده: تاريخ علم الاجتماع، 89).

2 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 35، 36؛ ويدجيرري: المذاهب، 26، 265؛ كولونجود: فكرة، 232؛ 236. انظر أيضا:

Lewes, G H., The Biographical History of philosophy from It Origin Greece Down to the Present Day, New York, 1857, pp776-784.

لعل أبرز من استخدم المنهج المقارن هو الإنجليزي أرنولد توينبي، مع استخدام منهج آخر بجواره وهو منهج دراسة العلاقة أو الاتصال بين الحضارات. وبموجب ذلك توصل إلى نظريته الفلسفية للتاريخ، نظرية التحدي والاستجابة. ولا ريب أنه تأثر في موضوع المنهج بمن سبقوه وخاصة أسوالد شينغلر. (انظر: توينبي، أرنولد: الحضارة في الميزان، ترجمة: أمين محمود الشريف، دمشق 2006، ص 217، 216، 25).

في لماذا حدث"⁽¹⁾. وبهذا تتحول أهداف الدراسات التاريخية من محاولة الإجابة على سؤال لماذا، إلى الإجابة على كيف حدث. فالعلم حسب نظره دراسة العلاقات السببية للظواهر وليس دراسة الماهيات للظواهر ذاتها. وبهذا فقدت النزعة العلمية التي يدعيها كونت فهم غائية الوجود والتاريخ والإنسان⁽²⁾. وربما نستطيع القول إن الوضعية لم تكن سوى رد فعل على المثالية الألمانية ومنهجها التأملي⁽³⁾، وهو ما يؤكد التفسير الجدلي للتاريخ الفكري لأوروبا. إذ عندما يسود تيار فكري معين لا يلبث أن ينشأ تيار فكري آخر مضاد له وهكذا.

هنري بكل: (المنهج الإحصائي لكشف قوانين التاريخ) :

كان المنهج الإحصائي هو المنهج العلمي الذي دعا إليه واتخذه المؤرخ الإنجليزي هنري توماس بكل⁽⁴⁾ Buckle (ت1862م) ليثبت من خلاله أن لا شيء مصادفة في التاريخ الإنساني، و أن التاريخ يخضع لقوانين صارمة شبيهة بقوانين الطبيعة، موضحا على سبيل المثال: أن عدد الجرائم التي تقترب كل عام تخضع لقوانين رياضية صارمة مثل أي ظاهرة طبيعية.

وكانت النتيجة هي الدمج بين التاريخ و علم الطبيعة حسب رأي بعض الباحثين، حيث لا شيء يخلو من النظام الطبيعي و حتميته الصارمة. و أن الحرية المزعومة للإرادة الإنسانية هي وهم. وبذلك فإنه- بكل - أزال كل الفوارق بين العالم الاجتماعي و عالم الطبيعة، و بين الأخلاق و علم الطبيعة. بل الوقوف موقف الوسط

1 - علي صديقي : إشكالية المنهج في الدراسات الإنسانية والأدبية

2 - الطيب بو عزة : الدين من المنظور الفلسفي الغربي ، الفلسفة الوضعية نموذجاً ، مجلة التسامح ، العدد 26 مسقط 2009م ، ص 62 وما بعدها.

3 - باسكيز ، أضولفو: البنيوية والتاريخ ، ترجمة مصطفى المسناوي ، بيروت 1981، ص 10.

4 - هنري توماس بكل: مؤرخ انجليزي ، اشتهر بكتابه: تاريخ الحضارة في انجلترا . (أنظر:

Wikipedia, Henry Thomas Buckle).

بين العالم الميتافيزيائي و العالم الفيزيائي حيث يؤكد بكل: " أن توطيد شروط هذا التحالف يعني تحديد الأساس الذي يعتمد عليه كل التاريخ"⁽¹⁾.

ولكنه يؤكد أن فكرة الرفاه البشري مرتبط بشكل اكبر بالمعرفة العقلية، فالظواهر الطبيعية والأخلاق، أقل تأثراً من تأثير المعرفة، وبهذا فإن التقدم مرتبط بالعقريات الفردية إلى حد كبير. ولذلك تمسك - بكل - بالقول إن معرفة قوانين العلاقات الاجتماعية هي قبل كل شئ يجب أن يكون موضوع البحث التاريخي⁽²⁾.

ولا يمكن معرفة القوانين العقلية التي تنظم تقدم المجتمع إلا من خلال المنهج الإحصائي والمستند إلى مسح شامل للبيانات. ذلك لأن المناخ والتربة والغذاء والسماوات الأساسية للطبيعة هي الأسباب الأساسية للتقدم الثقافي كما يقول⁽³⁾.

تأين : الوصف ثم التفسير :

أما منهج الوصف ثم التفسير أو جمع الوثائق ثم البحث بعد ذلك عن العلل فقد كان المنهج الذي دعا إليه المؤرخ الفرنسي تأين Hippolyte Adolphe (1828-1893م)⁽⁴⁾، الذي حاول التخلص من هيمنة الفكر المثالي الهيجلي. على أساس أن تلك الوقائع أو الظواهر تتحدث عن نفسها وتفسر نفسها بنفسها و التخلص من أي معايير أو أحكام مسبقة أو قبلية أو الشعور بأي تعاطف شخصي أو نفور، أي

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 36، 37؛ ويدجيرري: المذاهب، 268 وما بعدها؛ كولنجوود: فكرة التاريخ، 261. Wikipedia, Henry Thomas Bukle.

2 - ويدجيرري: المذاهب، 268 وما بعدها؛ كولنجوود: فكرة التاريخ، 261.

Buckle, H. T., History of Civilization in England, Oxford, 1858, p267ff

3 - لم يكن الكشف عن قوانين التاريخ منهجاً سائداً أو غاية عند كل المؤرخين . فعلى سبيل المثال يشدد لانجويس Langluis (ت1929) أنه ليس على المؤرخ صياغة قوانين عامة، إذ الهدف هو فقط توضيح الحقيقة ، فالتاريخ ليس علم ملاحظة بل هو علم كيفية معرفة ماذا حدث في الماضي من خلال المصادر غير المكتملة المتوفرة للمؤرخ. (Britannica, Historiography).

4 - تأين :مؤرخ وفيلسوف وناقد فرنسي له العديد من المؤلفات مثل، فلسفة الفن و تاريخ الأدب الإنجليزي: و مقدمة التاريخ (انظر كاسيرر: المعرفة التاريخية ، 123، و حاشية 8، 10، 15؛

Hippolyte Taine, Oxford 1972) L., Weinstein,

أن على المؤرخ الحياد الكامل أو عدم الانحياز⁽¹⁾. والسعي إلى استخدام المناهج الوضعية لدراسة التاريخ⁽²⁾. ولأجل ذلك فهو يتفق مع بكل في استخراج القوانين الناعمة للتاريخ⁽³⁾.

إلا أن الفارق بينه و بين كل من (رانكه ، وهمبولت) هو التبسيط الشديد لتفسير وقائع التاريخ الذي اعترف به تايين نفسه، حيث يشير إلى أن: " الدافع الكامن وراء كل أبحاثه هو العثور على تعبير غير معقد يفسر الأحداث العظيمة التعقيد"⁽⁴⁾. ولأجل ذلك كان تايين يصر على أن منهجه هذا هو المنهج العلمي الصحيح لدراسة التاريخ⁽⁵⁾.

ولأجل نقد و تقييم (تايين) تساءل المؤرخ كاسيرر هل كانت التصورات أو التفسيرات التي قدمها تايين بناء على المنهج الاستقرائي أم المنهج الاستنباطي⁽⁶⁾؟ ليكشف أن تايين لم يلتزم بحرفية منهجه المدعي- الاستقرائي- ، بل شابت تصوراته الكثير من التفاسير المستنبطة وهو ما يسقط الموضوعية التي يدعيها و يناقض منهجه المزعوم⁽⁷⁾.

- 1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 37، 38. أصبح بعد ذلك الوصف ثم التفسير ثم التنبؤ ثم السيطرة هي محاور العلم الأربعة المفترض توفرها في أي علم. إلا أن بعض العلوم لا تكتمل فيها هذه الشروط مثل علم الفلك أو علم الجيولوجيا و لذلك يأتي السؤال هل التاريخ علم يحقق محاور العلم الأربعة؟(انظر: يمني طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة، 264 الكويت ديسمبر 2000، ص368).
- 2 - عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة ، بيروت 1984م ، ج1 ص433.
- 3 - أحمد محمود بدر: تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، العدد 4 المجلد 29، أبريل يونيو 2001، الكويت، ص27.
- 4 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 38.

5- Mansfield, E., Art History and Its Institutions, London, 2002, p93

6 - المنهج الاستقرائي : يبدأ بدراسة الجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة أو صيغ عامة، ويعتمد على التحقق بالملاحظة المنظمة وفي العلوم التطبيقية تكون الملاحظة خاضعة للتجريب والتحكم في المتغيرات المختلفة، وذلك عكس المنهج الاستنباطي، حيث البدء بفرضية عامة ثم محاولة إثباتها (أنظر : محمد زيان عمر: البحث العلمي ، مناهجه وتقنياته، القاهرة 2002، ص49، 48).

7 - المعرفة التاريخية، 39 و ما بعدها، إذ يدعي الوضعيون ان الموضوعية في المنهج الاستقرائي ويهاجمون المنهج الاستنباطي.

على أية حال، ظل (تاين) يؤيد النظرة الفردية في التاريخ، أي أن الفرد هو بداية التاريخ و غايته. ومنبع كل معرفة حقيقية، حيث يقول⁽¹⁾: "لا يوجد أي شيء إلا من خلال الفرد، إنه الفرد نفسه الذي يجب أن يفهم .. اتركوا إذن نظرية الدساتير _ القوانين _ و التفسير الآلي لتركيبها، و نظرية الدين وأنساقها، وبدلاً من هذه الأشياء حاولوا مشاهدة الناس في مصانعهم و مكاتبهم وحقولهم ، كما يعيشون تحت الشمس، فوق أرضهم و في بيوتهم .. انظروا إلى ما يأكلون، و ما الذي يرتدون. فهذه الخطوة الأولى في التاريخ".

دروسن : تعدد المناهج :

ثم لم يلبث بعد ذلك أن ظهر جيل جديد من المؤرخين، لا يقتنعون بمناهج رانكه و معاصريه ومن تلاهم من المؤرخين. و لكن سيطرت عليهم التوجهات السياسية، فوضعوا منهاجاً جديداً في الدراسة التاريخية وهو تحديد أهداف مسبقة للدراسة ، محددة و مشخصة بدقة، و ذلك لتحقيق الأغراض السياسية التي تقام لأجلها الدراسة التاريخية، أي الاستخدام السياسي للدراسات التاريخية. على أن ذلك لم يسبب سوى نزاع جديد حول ما هي الأهداف السياسية الجديدة التي يجب أن تحدد للدراسة التاريخية⁽²⁾.

ومن هذه المدرسة الواقعية السياسية في ألمانيا أو مدرسة التاريخ السياسي يوهان دروسن Johann Droysen (1808-1884م)⁽³⁾ الذي هاجم (بكل) في "كتابه تاريخ الحضارة في بريطانيا" بشكل تفصيلي، و هو لم ينتقد فقط جعل التاريخ علماً بل هاجم كذلك كل المناهج المستخدمة آنذاك في دراسة التاريخ، فالتاريخ يثير

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 40 وما بعدها.

2 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 46، 47.

3 - دروسن: مؤرخ وأستاذ جامعي ألماني له العديد من المؤلفات منها: خلاصة التاريخ المنشور سنة 1864 (انظر كاسيرر: المعرفة التاريخية، 47؛ انظر أيضاً: كولنجود: فكرة، 295 ، 296 - Droysen، Wikipedia).

أسئلة لا يستطيع -كما يقول- التأمل الفلسفي أو اللاهوتي الإجابة عليها، أو العلم التجريبي الذي يدرك عالم الظواهر من ناحية علاقاته الكمية فقط، أو المنهج الاستنباطي أو المنهج الاستقرائي، كذلك لا يمكن الإجابة على أسئلة التاريخ باستخدام اصطلاحات الطبيعة الرياضية، ويقول دروسن إن المناهج تختلف وفقا لموضوعاتها. ولذلك أصر على تأييد كثرة المناهج وتعددتها في دراسة التاريخ، ولكن ركز أكثر على فكرة الفهم وجعلها محورا للمعرفة التاريخية. وفكرة الفهم هذه هي التي بدأ منها بعد ذلك (دلثاي) تشخيص فردية المعرفة التاريخية كما سوف نرى⁽¹⁾.

منهج ثيودور مومسن :

أما ثيودور مومسن⁽²⁾ Theodor Mommsen (1817-1903م) فإنه وإن كان ينتمي إلى مدرسة التاريخ السياسي، إلا أنه أضاف إليها منهجاً مهماً في دراسة التاريخ وهو أنه لا يتأتى فهم النظام السياسي و الحياة السياسية في الدولة إلا باستكمال دراسة جوانبها التشريعية والقانونية، ودراسة النقود، والمخطوطات القديمة، كما تميز منهجه لدراسة التاريخ، بضرورة التعاطف الوثيق مع الشخصية التاريخية المدروسة، حباً أو كراهية، ولابد من إطلاق مشاعر وخيال المؤرخ أيضاً، ولأجل ذلك نظر مومسن إلى التاريخ ليس كعلم بل كفن، لا يمكن للباحث فيه إلا أن يمتلك مواهبه الخاصة بذلك.

كما أعطى مومسن معرفة اللغات، وتحقيق النصوص والمخطوطات أولوية المنهج التاريخي، وذلك للوصول إلى ما أسماه روح التاريخ، وهو بهذا يقترب كثيراً من رانكه . ثم دعا إلى أسلوب منهجي جديد آنذاك، وهو العمل التعاوني، حيث رأى

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 40-48.

2 - مومسن: مؤرخ ألماني ، حاصل على جائزة نوبل في الأدب، عمل أستاذاً للتاريخ الروماني في جامعة برلين. له عدة مؤلفات منها: نظام التربيونات الرومانية في النظام الإداري (انظر كاسيرر، المعرفة التاريخية: 124 حاشية 18، 9؛ Wikipieia, Theodor Mommsen)

أن كاتباً واحداً بمفرده لن يستطيع الاضطلاع بأعباء البحث التاريخي، ولأجل ذلك من الضروري تنظيم العمل بين المهووبين، على أن يأتي بعد ذلك دور المؤرخ الفذ بطابعه الفردي و عبقريته الخاصة به⁽¹⁾.

بين التاريخ السياسي والتاريخ الحضاري :

يستطيع الباحث التاريخي اليوم أن يقف على جوانب نزاع طويل في القرن التاسع عشر نشب بين أنصار التاريخ السياسي والتوظيف السياسي للتاريخ وأنصار التاريخ العام للحضارة ومنهم مؤرخو التاريخ الاقتصادي، وكان باحثو تاريخ الحضارة يستندون إلى حدٍ ما للأسس التي وضعها قبل ذلك فولتير Voltaire (1694-1778م)⁽²⁾، الذي أدرك ضعف الدراسات التاريخية المقتصرة على السياسة وحدها ولذلك يشير فولتير إلى أن التاريخ لا يكون فقط سجلاً من المعارك والعمليات العسكرية، أو المؤامرات السياسية ولكن عليه توضيح النشاط الفكري بأكمله، فإلى جانب الأحداث السياسية عليه أن يرسم صورة لتقدم الاتجاهات الفكرية والأدبية والفنية لكل عصر، إضافة إلى عرض للحياة الأخلاقية بكاملها في ذلك العصر⁽³⁾. إذ أن التاريخ بالنسبة له هو قصة تقدم العقل البشري.

ورغم ذلك ظل تاريخ الحضارة كموضوع للدراسات التاريخية موضع هجوم مستمر من كثير من المؤرخين العاملين في مجال الدراسات التاريخية في القرن التاسع عشر من حيث المنهج والموضوع، وإن بالإمكان للصور الحضارية أن تصاحب دراسة الأحداث السياسية و لكن ليس أكثر من ذلك⁽⁴⁾.

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 49 وما بعدها.

2 - فولتير: كاتب فرنسي اشتهر بعدائه للكنيسة والدين (أنظر: (Morley, J., Voltaire, London 1923).

3 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 55.

4 - كاسيرر: المعرفة التاريخية ، 6 . من هؤلاء على سبيل المثال ديتريش شافر D. Schaefer في كتابه: المهمة الحقيقية للتاريخ. (أنظر: كاسيرر: المعرفة التاريخية، 125، 46 حاشية رقم 2).

على أن أنصار التاريخ الحضاري لم يألوا جهداً في الدفاع عن منهجهم في دراسة التاريخ ولذلك يذكر ابرهارت جوتهاين Eberhard Gothein (1853-1923م) تعذر فهم طبيعية الدولة وتطورها فهما كافيا بقصر النظر إليها من ناحية واحدة. ولابد من فهم العوامل الأخرى خاصة القانون والاقتصاد والدين والعلم والفن والآداب.

ويلاحظ المستعرض لهذا النزاع أن المقارنة بين الاتجاهين في كتابه التاريخ لم تكن في صالح مدرسة التاريخ الحضاري سواء من ناحية المنهج أو المصادر المعتمدة للدراسات ، فكتابة التاريخ السياسي تستند إلى تاريخ طويل من العمل العلمي في هذا المجال، وأسس منهجية واضحة. بينما كتابة التاريخ الحضاري - والتاريخ الاقتصادي- تفتقر إلى مثل هذا، وتفتقر كذلك إلى المصادر الكلاسيكية المتخصصة في هذا المجال⁽¹⁾.

على أية حال لم تكن أوضاع دراسات التاريخ الحضاري ذات اتساق واحد في أوروبا، ففي بريطانيا استمر فكر (فولتير) عن معنى تاريخ الحضارة وقيمته، وهو أن المحك الحقيقي لتقدم الحضارة هو تقدم المنهج والفكر، فالتاريخ ليس مجرد سرد، بل ينبغي أن يشرح السياق الفكري بأكمله ورسم صورة لتقدم الاتجاهات الفكرية وأن يقدم نظرة عامة للحياة الخلقية بأسرها في العصر. وفي فرنسا استخدمت جميع مناهج التحليل النفسي آنذاك لدراسة تاريخ حركة دينية هي اليانسينية Jansenism⁽²⁾ وانتشارها، وفي دراسة تاريخ الفن. أما في ألمانيا اتبع كل من ريهل Riehl⁽³⁾

1 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 57، 58.

2 - اليانسينية: نسبة إلى كورنيل يانسين Jansenism 1585-1638 رجل دين هولندي، أسس حركة دينية ضمن الفكر الكاثوليكي، نشطت ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. ارتبطت الحركة بدير بورت رويال، ثم أصدرت بابوية روما عدة إدانات لها في عهد كل من البابا انسونت السابع وكليمنت الحادي عشر، متهمة الحركة بالزندقة. (للمزيد أنظر: Doyle, W., Jansenism, Sydney 2000)

3 - ريهل، وليم هنري: مؤرخ وصحفي ألماني من مؤلفاته: التأريخ الطبيعي للشعب الألماني. (أنظر:

(1897-1823) وفرايتاج⁽¹⁾ freytag (1895-1816) منهاجا مختلفا في كتابة التاريخ الحضاري حيث الاستغراق في التفاصيل الصغيرة ورسم مشاهد الحياة اليومية لتكون صورة تاريخية كبيرة عند تجميعها⁽²⁾.

دلتاي : الفهم و تكوين الجمل (مجمل الفترة التاريخية) :

حين كانت المدرسة الفرنسية الوضعية مثل أوجست كونت تحاول مماثلة منهج دراسة التاريخ مع مناهج العلوم الطبيعية والفيزيائية ، وكانت الفلسفة الوضعية تهيمن على الجامعات الألمانية، حتى نهاية القرن التاسع عشر، ظهر ويلهلم دلتاي Wilhelm Dilthey (1822-1911م)⁽³⁾ يكتب فلسفته ومنهجه في التاريخ. حيث دعا إلى وضع حدود فاصلة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، ولهذا رفض أطروحات الوضعيين الذين يريدون استخدام مناهج العلوم الطبيعية والفيزيائية في الدراسات الإنسانية، إذ أن هدف المناهج الطبيعية الوصول إلى قوانين عامة، بينما الدراسة التاريخية تهدف إلى فهم واقعة مفردة غير متكررة. ولهذا استخدم (دلتاي) مصطلح الفهم بدلا عن مصطلح التفسير ، حيث أن العلم يعلل بينما الدراسات الإنسانية تتفهم الحياة أو التجربة⁽⁴⁾. العلم الطبيعي موضوعه الطبيعة بينما التاريخ

Lehmann, H. and Melton, J. V. H., Paths of Continuity: Central European Historiography from the 1930s to the 1950s, Cambridge 2003, pp281 ff).

1 - فرايتاج، جوستاف: أديب وسياسي ألماني له قصص تاريخية لشخصيات شعبية (للمزيد عنه أنظر: Warner, C. D., A Library of the World's Best Literature - Ancient and Modern, London 2008, Vol.xv, pp6011 ff.

2 - كاسيرر: المعرفة التاريخية، 58 وما بعدها.

3 - دلتاي: فيلسوف ألماني ومؤرخ عمل مع آخرين على شق منهج جديد للعلوم الاجتماعية والإنسانية مختلف عن منهج العلوم الطبيعية (أنظر: بوبر، كارل: أسطورة الإطار، تحرير: مارك ر. بوبر، ترجمة: يمني طريف الخولي، الكويت 2993، ص 292 حاشية 14ت، ويدجيري: المذاهب، 314)

4 - علي صديقي : إشكالية المنهج في الدراسات الإنسانية والأدبية .

http://www.odabasham.net..2008/12/20 Hamilton, Historicism, pp70ff

موضوعه الإنسان ولهذا لابد للمؤرخ أن يكون قادراً على أن يفهم من الداخل الأسباب والأغراض والانفعالات للأشخاص موضوع الدراسة التاريخية⁽¹⁾.

كما يركز منهج دلتاي في دراسة التاريخ على ما أسماه تكوين الجمل totalities، والجمل تعني هنا مجموع سمات عهد ما، ووصفه من جميع جوانبه. حيث لا يمكن أن نفهم المجتمع والتاريخ إلا من خلال هذا المنهج، فالوقائع التاريخية - حسب زعمه - لا يمكن أن تفهم من خلال قوانين تشبه قوانين الفيزياء، وبالتالي لا يمكن أن نستخدم مناهج الطبيعة الفيزيائية لدراسة الوقائع التاريخية.

ولهذا يشير دلتاي إلى أن الإنسان لن يصل إلى الإحاطة بمجموع الكون، كما أنه لن يصل بقانون واحد أو وحيد إلى تلخيص صيرورة الحياة التي لا تنقطع ولا إلى التنبؤ بمستقبلها. ورغم أن دلتاي كان يردد باستمرار أن المحيط الطبيعي يكيف حياة الإنسان كما أن الطبيعة هي مسرح الوجود الإنساني، وشرطه، إلا أنه يقول إنها ليست شرحاً له، ولا تملك مفاتيحه، وعلى ذلك لأجل الوصول إلى الحقيقة العلمية، لابد من الاستناد على اليقين المباشر والتجربة، كما لا يمكن أن نفهم التاريخ، إلا بالنظريات، ولا النظريات إلا بالتاريخ.

والعلاقة بين النظرية والتاريخ هو أن نبين العلاقة بين المعرفة المنتظمة وبين الوصف التاريخي⁽²⁾.

1 - عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، 161/2.

2 - آرون، ريمون: فلسفة التاريخ النقدية، بحث في النظرية الألمانية للتاريخ، ترجمة حافظ الجمالي، دمشق 1999، ص 6-109، 298؛ ويدجير: المذاهب، 314.

Kearney, R., Twentieth Century Continental Philosophy, London, 1994, p241 ff

لخص آرون المنهج التاريخي عند بعض المؤرخين الألمان كالتالي: عند زيمل توثيق الوقائع التاريخية، وعند ريكيرت اصطفاء هذه الوقائع، عند ماكس فيبر: الكشف عن العلاقات السببية، وعند دلتاي تكوين الجمل. (انظر: ص 296).

خاتمة : نظرة نقدية:

يعتبر النقد وسيلة مهمة لتطوير مناهجنا العلمية وأدواتنا المعرفية، ولا يقصد بالنقد هنا مجرد إظهار للعيوب، ولكن كما يقول فيلسوف المنهج العلمي في أوروبا كارل بوبر⁽¹⁾: "يتوقف نمو المعرفة خصوصاً المعرفة العلمية، على التعلم من أخطائنا". ويقول أيضاً⁽²⁾: "منهج العلم هو منهج المناقشة النقدية". فالنقد هو أحد أدوات المنهج العلمي للتطوير والإصلاح والتقدم العلمي.

يلاحظ على تاريخ المنهج الغربي الحديث أنه بدأ نشاطه بالانقلاب على الدين والكنيسة⁽³⁾ ولهذا ظلت كثير من هذه المناهج خلال القرون التالية لهذا الانقلاب مجرد تراث هذا الانقلاب على الدين، واستمرار محاولات تجريد العلم من أي صفة إيمانية له. وبطبيعة الحال كانت العلاقة تضاد مع الذين يؤمنون بالدين، فكان المنهج يتراوح بين اللادينية والفكر اللاهوتي المسيحي الذي لم يبتعد عن فكرة المخلص للسيد المسيح في حركة جدلية استمرت حتى القرن العشرين بظهور نظرية أرنولد توينبي في التاريخ.

وتعددت المناهج تعدداً بيناً، كما رأينا، وكانت التأثيرات متبادلة بين المنهج والفكر التاريخي نفسه، فأحياناً يؤثر المنهج بطبيعة الحال على نتائج الفكر الفلسفي، وأحياناً الفكر الفلسفي المسبق - القبلي - هو الذي يحدد المنهج والأسلوب.

1 - بوبر، كارل: أسطورة الإطار، 121.

2 - بوبر، كارل: أسطورة الإطار، 122.

3 - كانت حركة الاستنارة كما أطلق عليها ليس فقط ضد سلطان الكنيسة ولكن ضد الدين كيما كان، واعتبر فولتير نفسه قائد حملة تستهدف القضاء على المسيحية، فقاتل تحت شعار "محق الباطل" وكان الدين بنظرهم مجرد من أي قيمة إيجابية (انظر: كولنجود: فكرة التاريخ، 148-150) كما كانت قضايا التجسيد والثالث المقدس والأساليب الكنسية من العوامل التي أدت إلى إبعاد المفكرين عن الدين (انظر: لانج، جيرى: حتى الملائكة تسأل، عن قصة الإسلام في أمريكا، تعريب: زين نجاتي، القاهرة 2002 ص 14، 13)

كانت جهود العلماء كبيرة في الوصول إلى منهج معرفي يحقق أعلى درجات الدقة ومعرفة الحقيقة، والاستفادة من التاريخ. إلا أن المنهج الذاتي يكاد يفقد علميته وأمانته بتدخل الباحث وشخصيته دون قيد، مما يجعله عرضة للأهواء. أما ما يسمى بالمنهج الموضوعي، فهو يكاد لا يصل بالباحث إلى نتيجة، سوى وصف ما كان كما كان، وهو مالا يتحقق إلا نسبيا. وبالتالي لا يحقق محاور العلم الأربعة، الوصف التفسير التنبؤ والسيطرة. كما أنه يجعل من المؤرخ مجرد عامل أرشيف - إذا نجح في وصف ما كان كما كان - أو مجرد موثق يفقد علم التاريخ بهذا صفته الإيجابية، والقدرة على الاستفادة منه لفهم الحاضر ومعرفة توجهات المستقبل.

وكانت نظرية النسبية لإينشتاين التي أثبتت أن الذات العارفة هي طرف في معادلة فهم الطبيعة إذ أن موقع الشخص وسرعته معينات أساسية في المعادلة الرياضية في تفسير عمليات الكون⁽¹⁾. وبهذا يسقط وهم الموضوعية سقوطاً لا رجعة عنه. فمكان وزمان الباحث التاريخي - كما ثبت علمياً - إضافة إلى خلفياته الفكرية والنفسية يحددان اتجاهات كتاباته. وهو الشيء - على سبيل المثال - الذي تنبه له إدوارد سعيد في دراسته للاستشراق و محاولات الباحث الغربي دراسة الشرق⁽²⁾.

وأيضاً مما يمكن أن يؤخذ على هذا المنهج هو تركيزه على الوسيلة وإغفال الغاية أو النتيجة النهائية، أي التركيز على دراسة الجزئيات دون الخروج إلى مفهوم كلي، أو صياغات كلية تساعد على فهم وتفسير السياق العام للتاريخ الإنساني. فهو كما اسماء كولنجوود: "التاريخ الذي يقوم على طريقة جمع المقتطفات"⁽³⁾.

1 - أنظر : يمني طريف الخولي : فلسفة العلم ، 204، 203 ؛ أنظر أيضاً: بوبر، كارل : أسطورة الإطار، 288، حاشية 33.

2 - أنظر : إدوارد سعيد: الاستشراق ، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، القاهرة 2008، ص57.

3 - كولنجوود : فكرة التاريخ ، 405 ؛ أنظر أيضاً : عبد المالك التميمي : الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية المعاصرة ، 39 وما بعدها.

أما أسطورة المنهج الاستقرائي أو منهج الملاحظة الذي لا يسترشد بمقولة استنباطية أو لا يسبقه فرض معين، فقد أسقطها ثلاثة من كبار علماء الغرب أنفسهم، (كارل بوبر واينشتاين وتشارلز دارون)، في دراسة تفصيلية لكارل بوبر لا حاجة لنا لاستعراضها هنا سوى القول: إن الاستقراء دون أي فكرة مسبقة هو مجرد وهم⁽¹⁾. وفي كل الأحوال، مثلت جهود علماء الغرب في القرن 19 حلقة هامة من حلقات تطور المناهج العلمية لدراسة التاريخ وما وصلت إليه في القرن العشرين.

1 - بوبر، كارل: أسطورة الإطار، 124.